بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي

المؤتمر العام الرابع عشر

٢٢– ٢٥ شعبان ١٤٢٨هـ/ ٤– ٧ أيلول ٢٠٠٧م

صناعة الحبّ في الإسلام

الأستاذ الدكتور عبد الهادي التازي

عمّان – المملكة الأردنيّة الهاشميّة

صناعة الحبّ في الإسلام

أ . د . عبد الهادي التازي

لم نكن بحاجةٍ إلى مراجعة مادّة الحبّ ومشتقّاته في القرآن الكريم ولا مادّة المودّة، ولا مادّة السّلام، وكلّها مواد غنية جداً بما يتّصل بالحبّ والودّ والوئام .

ولم نكن كذلك بحاجةٍ إلى تفقّد هذه العناوين في الحديث الشّريف لنصل إلى الحقيقة التي تقول: إنّ الحبّ هو الهَـيُولَى التي يعتمد عليها الإسلام في نشر الفضيلة، والتي تحفّز الهمم لفعل الخير .

أقول: لم نكن بحاجةٍ إلى تلك المراجعة الشّاملة لأننا نجد أنّ كلّ أدبيات الإسلام كانت تصبّ في نشر المحبّة والمودّة والسّلام بين الإنسان وأخيه الإنسان، وفي العمل على إفهام النّاس أنْ لا طريق للتعايش إلاّ عن طريق التّحابّ والتّواد والتّواصل .

وقد وجدنا الجاحظ يعطي تعريفاً للحبّ، ويقدّم له عدداً من المفردات المترادفات . وأتى بعده ابن القيّم الجوزيّة ليذكر: أنّ العرب وضعوا لهذه الكلمة نحواً من ستين لفظة . وهكذا سمعنا عن المحبّة، والهوى، والشّغف، والتّتيّم، والجَوى، والدّنف، إلى آخر اللائحة الطّويلة التي أتى عليها ابن الجوزيّة في تأليفه "روْضة المحبّين" .

ومعنى كلّ هذا أنّ الحضارة العربيّة والإسلاميّة تُولي اهتماماً كبيراً لهذه المفردة الكبيرة الوزن، العظيمة الشّأن، التي نسمّيها "الحبّ" والتي لولا عَبَق أَريجها في هذا الوجود لكنّا نعيش في جحيم الوحدة القاتلة، التي لا يبقى معها طعم للحياة ولا مذاق ! الوحدة القاتلة التي لن تؤدّي إلاّ للمحنة والمعاناة .

لقد بحثتُ عن الحبّ في الإسلام في غير المظانّ التي يقصدها النّاس، لم أنبش عنها في فصول الحبّ والمحبّة والودّ، ولا في بيوت المحبّين والمتودّدين، ولكن في مكانٍ آخر يتحدّث عن "نوازل" يعتقدها المرء للنّظرة الأولى، بعيدةً عن شأن الحبّ بينما هي من نسْجه وسَداه وعُمقه وصلبه .

لقد وجدتُ أنّ صناعة الحبّ عند الإسلام، صناعة تعتمد على الكثير من الحنكة، والكثير من التّجربة والمِران، لقد وجدت أنّ صناعة الحبّ عند الإسلام صناعة تعتمد على الوفاء للحبّ إلى ما لا نهاية له، تعتمد على القول بأزَليّة الحبّ، بمعنى أنك إذا أحببت ولو لساعةٍ واحدةٍ أصبحت عند الإسلام مسؤولاً عن توابع تلك السّاعة!

قرأت من صناعة الحبّ في الإسلام المهاداةَ بين النّاس، بمعنى الإبقاءِ على شعرات الودّ بين البشر، على تعهّد تلك العلاقات وتفقّدها من وقتٍ لآخر بالمبادرة الحسنة وبالمطايبة، إنّ الزّهور إنما تنمو ويحسن منظرها بتعهدها بالسّقي والتّشذيب والصيانة.

عرفنا من صناعة الحبّ في الإسلام دعوة الإسلام إلى أن يبقى المسلم يقظاً أمام كلّ سانحةٍ تبدو في الأفق، من أجل أن يغتنمها في إقامة علاقاتٍ طيّبة، وإذا أحبّ أحدكم أخاه فليشعره بأنّه يحبّه، بأيةِ طريقةٍ حتى يهيئه هو الآخر ليبادله تلك المشاعر.

هناك أدبيّات في شرع الإسلام تحملنا على التأمّل في سلوك الإسلام إزاء الآخرين.. سلوك الإسلام الذي لا ينبني على بثّ الكراهية والظّلاميّة ونبذ الآخر.. ولكنه يعتمد على فهم الغير وكسْبه.

وجدتُ صناعة الحبّ عند الإسلام في حديثه عن البسمة يفترّ بها ثغرك أمام مخاطَبيك! عن الكلمة الطيّبةِ الجميلةِ تنطق بها أمام ناسك: ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة: ٨٣]... ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]... ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

لقد كان الإسلام يعرف عن حاجة مؤسّسة الزّواج إلى الكثير من أطياف الحبّ وألوانه، في كل مرحلةٍ من مراحل الزّواج، وفي كل منعرجٍ من منعرجات المسيرة، فأغدق عليها كمّاً هائلاً من التّوجيهات والإشارات حتى تظلّ طوَال العِشْرة ملقّحةً ضدّ كلّ طارئ، مزودةً بما يساعد على استثمار المؤسّسة أحسنَ استثمار وأوفاه!!.

وما أعلم سرداً من أنواع السّرد ، أعطى لصلة الرّجل بالمرأة ما أعطاه الأدبُ العربيّ والإسلامي من أنماط التّعابير التي تعمل على تغذية ذلك الحبّ ، والسّموّ به إلى أعلى الدّرجات .

هناك مفردات في القرآن الكريم تتحدّث عن تلك المؤسّسة : مؤسّسة الزّواج على أنها سَكَن دائم غير قابل للرّحيل . . . على أنها مؤسّسة تحتاج الإصغاء لكلمات المودّة والرّحمة، وتقدّر معنى "إفضاء" البعض للبعض . . . وتزن بالميزان معنى "الميثاق الغليظ" .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] .

كَمٌّ هائل من التّوجيهات يترصّد "المؤسّسة" حتى لا تنزلق، يتعهدها في حالات "الأزمات" العابرة فيقرّب بين تجاوزاتها ويخفّف من نشازها ، فإذا بالمؤسّسة ترجع إلى عهدها الأوّل، وما الحبُّ إلاّ للحبيب الأوّل .

ابحثوا جيّداً عن صناعة الحبّ بالنسبة لمؤسّسة الزّواج فستجدونها في الأدب والحديث والحكمة السّائرة والبيت من الشّعر . وحتى في تشريع الطّلاق نجد أنّ صناعة الحب حاضرة: إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان . لِنَقِفْ قليلاً مع علاّمة كبير معروفٍ في الغرب الإسلامي باسم أبي البركات ابن الحاج. كان متزوّجاً بسيدةٍ فضلى هي أيضاً معروفة في دنيا الإسلام: السيدة عائشة، كريمة الوزير أبي عبد الله المغيلي، كلاهما قطبٌ من أقطاب المعرفة والفضل ويعرفان معنى التّواصل . . . ولكن . . . وقد شعرا بالملل من بعضهما . . . صاغ الزّوج عقد فراقٍ يعبّر عمّا وصل إليه الشّعور بالميثاق الغليظ .

قرأتُ صناعةَ الحبّ عند الإسلام في أدب الجوار، حتى لكاد المتجاورون أن يصبحوا ورثةً لبعضهم البعض الآخر على نحو ما كان الإغريق يورثون بين الأستاذ والتّلميذ .

قرأتُ صناعة الحبّ عند الإسلام في استشارة الإسلام لشرائع جيرانه من الفرس والرّوم، لأنهم جيران، والجوارُ آصرةٌ مقدّسة تقتضي منّا أن نغمُرها بالحبّ والحنان.

قرأتُ صناعة الحبّ عند الإسلام في إيمانه بكل ما أتى به الرُّسل من قبله: ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

قرأت صناعة الحبّ في حرص الإسلام على بسط العدل والمساواة بين النّاس، إنّ الناس جميعَهم من آدم، فكيف نسمح لأنفسنا بتعالي النّاس بعضهم على بعض!! وتطاول القوي على الضّعيف: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الملك: ٣].

ومن هنا قرأنا إنّ العلاقات – في نظر الإسلام – بين الأمم يجب أن لا تنبني على أساس الأحاديّة ولكن على أساس أن تشعر بي وأشعر بك، أي على أساس أن لا تكون أنت الأعلى وأنا الأدنى، ولكن على أساس أننا جميعاً موجودون!

قرأت هذه الصّناعة في الآية التي تطلب إلينا ألّا نجعل من مواثيقنا ومعاهداتنا وسيلةً للغشّ والمخاتلة والمراوغة، وأن لا يدسّ طرفٌ للإيقاع بالطّرف الآخر.

هذا ليس إسلاماً، الإسلام أن يكون التّعاقد على قدم المساواة وليس على أساس ما يسمّى بالاتّفاقات السبُعِيّة Le conventions Léoniennes.

وقد ضرب الإسلام لهذا مثلاً بتلك المرأة الخرقاء، التي كانت تُعرف في الجاهليّة باسم (رَيْطَة بنت سعيد التّيميّة...).

كانت تغزل من الغداة إلى الظّهر، ثم تنقض ما غزلت، وهكذا يذهب جهدها عبثاً في عبث، وضياعاً في ضياع.

رُبَّما يذكّرنا اسم ريْطَة هذه، في الأسطورة الإغريقيّة التي تتحدّث عن بينيلوب (Penelope) التي كانت تنقض في الليل ما غزلته في النّهار على ما هو معروف في السّرديات اليونانيّة.

يبدو أنّ قصّة ريْطة كانت مشهورةً في دنيا العرب، ومن ثمّ وجدنا القرآن الكريم يشير إليها في تلك الآية العظيمة التي تُعتبر المبدأ الأساس الذي ينبني عليه الإسلام في علاقاته الدّوليّة: لقد كان الإسلام يرفض أن تكون العلاقات بين الأمم على أساس أن تكون أمةٌ أربَى من أمّة، لأنّ هذا المبدأ يتنافى مع مبدأ الصّدق الذي اتّخذه الإسلام شعاراً في التّعامل مع جيرانه الأقربين والأبعدين ومع من اختاره لمصاحبته ومحالفته.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍ ﴾ [النحل: ٩٢].

كان الميثاق في دنيا الإسلام يعلو فوق كلّ اعتبار لأنه ميثاق، والميثاق يعني رباطاً مقدّساً يقوم على عدم التَّطفيف في ميدان التّعامل، وعلى اقتناع الطّرفين بضرورة التّعايش والتّحاب.

وعجيبٌ أن يعمل الإسلام مع الذين يتعاقد معهم على أن يبقى أمد المعاهدات مفتوحاً من حيث المبدأ... مرة يكون الأمد عنده عشر سنوات، وأخرى أقل أو أكثر، وثالثة دون تحديد... وكان ذلك منه تعبيراً عن ترك الباب مفتوحاً للتّواصل بين الإسلام وبين غيره... فلا حدّ لما يُؤلف بين النّاس... وإذا تأتّى الاتّصال فلا يعدل عنه إلى الانفصال كما يقول النّحاة.

بيد أنّ هناك عنصراً أساسياً لدى الإسلام في التّعامل الدّولي، ذلك لأنه في الوقت الّذي يعمل فيه إشاعة فضيلة الحبّ بين البشر، في ذات الوقت لا يقبل المساومة على كرامة الإنسان وإذلاله، وهو مع الحبّ ولا يوافق على ما يصنع الكراهية والنّفرة ورفض الآخر.

مع الحبّ وليس مع العنصريّة والتّعالي على النّاس، كلّ النّاس لديه سواسية كأسنان المشط، وهذا مبدأ فاعلٌ عند الإسلام في صناعة الحبّ.

لقد عرفتُ عن صناعة الحبّ في الإسلام عندما وقفت على أنّ الإسلام حريص على احترام ثقافة الآخرين، وعقيدتهم، وتراثهم فهو يُحرّم إتلاف الكتب التي يتوفّر عليها الآخرون، ويحترمها ويحتفظ بها، ومن ثمّة وجدنا الفقهاء ينصُّون على حفظ مرجعيّات الآخرين ووجدنا المكتبة الإسلاميّة تتوفّر على الأناجيل والكتب المقدّسة.

وحتى نستوعب الموضوع أكثر لا بدّ أن نعرف عن المصطلح العربي الذي يُميّز جداً بين استعمال أداة (إذا) التي تدلّ على الشّرط المحقّق المؤكّد، وبين أداة (إنْ) التي تدلّ على الشّرط المشكوك فيه وغير المحقّق. وعلى ضوء هذا نفهم الآية التي تطلب من المسلم قبول رغبة الآخرين في السّلام ولو كانت رغبةً لا ترقى لدرجة اليقين.

قال تعالى: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾ [الأنفال: ٦١]. وعلى ذكر السّلم والسّلام، لا بدَّ أن نرجع إلى ما ورد في سورة الأنفال ويونس، والرّعد، ومريم، والأنبياء، والفرقان، والأحزاب، والرّوم، والواقعة، حيث نقرأ عن السّلام، ولا شيءَ غيرُ السلام!!

وحتى نتعمّق أكثر في متابعة إشاعة الحبّ مع الآخرين نشير هنا إلى مبدأ ديبلوماسي اصطُلح عليه اليوم في اللغة الدوليّة بعبارة "المسؤوليّة الشخصيّة"، ويعنون به تحريم مؤاخذة الأبرياء وأنّ عليك فقط أن تتابع الذي اعتدى عليك، وليس من حقّك أن تتجاوز ذلك إلى القريب منه بحجةِ أنك تبحث عن المعتدي.

الإسلام، وهو الحريص على تطويق ظاهرة الكراهية، والعمل على توسيع دائرة الحبّ... كان حريصاً أشدّ الحرص على احترام المسؤولية الشخصيّة... حتى لا يأخذ التباغض حجماً أوسع!!

ومن هنا دعا الإسلام إلى حصر المسؤوليّات على الصّعيد الدوليّ: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾

[يوسف: ٧٩]. وهذا يندرج عندي، على ما أشرت، في عمل الإسلام على نشر الحبّ بين الأشخاص وبين المجتمعات.

لِنقرأ مّا جاء في المدوّنات الأولى للتّاريخ الدّولي للإسلام، سنقرأ فيها ونحن نستعرض مبادرات نشر كلّ الوسائل للتحابّ والانفتاح على الغير، سنقرأ من بينها طلباً وجهه الخليفة عمر بن عبد العزيز لعظيم الرّوم يطلب إليه الخبرة الهندسيّة لبناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة ! !

بل لنقرأ طلب النبيّ ﷺ ، رأي الرّوم وفارس حول الموضوعات العلميّة التي كان الإسلام في حاجةٍ إلى استكمال معلوماته عنها .

ونحن على المائدة، نتناول طعامنا مع الآخرين، نجد الآداب الإسلاميّة تقتحم علينا مجلسَنا، لتذكّرنا بضرورة تعرّفنا على من يوجد معنا حول المائدة: "مِنَ الجفاء أن يلتقي المؤمنان ولا يعرف أحدهما اسم الآخر"، وماذا يعني هذا غيرَ إشاعةِ الحبّ وبسط السّلام ؟ !

وبمقدار ما عمل الإسلام على استيعاب الوسائل وخلق الفرص من أجل ازدهار صناعة الحبّ بين مَن حواليه نراه يبذل قصارى جهده لمقاومة كلّ ما يهدف إلى الكراهية بين النّاس، يعتبر ذلك إجراماً وعدواناً على الفطرة البشريّة: ﴿ **وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ** ﴾ [الحجرات: ١٣]، وليس من أجل أن تتهارشوا .

وقد كان أجملَ ما في الإسلام من وسائلَ لبسطِ السّلام ونشرِ الحبّ، أنه يطلب إليك أن لا تنتظر من الآخر أن يعاملك بالحسنى، فليس ذلك ضروريّاً لكي تستمر في منح ودّك . . وفياً بعهدك .

لنتبع كل الآيات، وكل الأحاديث . أمام عيوننا ثوابتُ الإسلام ومتغيّراته، سنجد أنّ أعمال الخير في صدر ثوابته، وأنّ فضيلة الحبّ في صدر اهتماماته، يصطنعها مع الأسرة الصّغيرة والأسرة الكبيرة . . . داعياً دائماً إلى المسالمة والمصالحة: ﴿ **فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ** ﴾ [التوبة: ٧] .